نوابغ (لواء) الحلة

باسم عبد الحميد حمودي

هكذا افضل التسمية القديمة والمعروفة لدى عروس الفرات الاوسط واصلها (الحلة) ذلك ان تسمية (اللواء) ورفع درجة (الحلة) الى مستواه قد مرت بشد وجذب زمن العثمانين وكان للديوانية الاهلية الادارية لان تكون عاصمة للواء يشمل المدينتين ثم تغيرت الاية وصار للحلة هيمنتها على الديوانية بقرار اداري عثماني ..وكان ذلك جزءاً من لعبة احداث المشكلات بين عواصم المدن المهم ان الحلة تتمتع بمناخ جميل واهل خيرين محبين للعمل والانتاج الاقتصادي والفكري وقد اشتهرت بالعديد من نوابغها الذين اثروا الحياة الفكرية في العراق الحديث ونبغوا في شتى مجالات البحث والعمل الثقافي ، منهم الشيخ المجاهد الدكتور محمد مهدي البصير شاعر ثورة العشرين واستاذ الادب اللامع ومنهم الدكتور احمد نسيم سوسة علامة الري والتاريخ ومنهم الاستاذ الدكتور علي جواد الطاهر استاذ النقد والادب الحديث واحد ابرز رواد النقد ومنهم الدكتور باقر سماكة احد اشهر كتاب اناشيد الطفل العراقي واغانيه واستاذ الادب الاندلسي ومنهم الاستاذ الدكتور سامي سعيد الاحمد استاذ التاريخ القديم ، وفي مقدمتهم العلامة الدكتور طه باقر بوابة التاريخ العراقي القديم، والباحث الاساسي في الاثار العراقية وغيرهم كثير والاستاذ الدكترو جعفر خصباك استاذ العصور الوسطى.

ابرز النوابغ الحليين الذين رحلوا مبكرين شابان هما عالم سبيط النيلي وهو مفكر جدير بالتقدير والباحث الفولكلوري الشاب جبريل حمد الهيلة الذي استطاع الباحث الشاعر شكر حاجم الصالحي جمع مانشره هذا الكاتب الذي رحل مبكراً ونشره في كتاب نعرض واحداً من موضوعاته في هذه الصفحة التي تريد الاشارة الى اهمية هذا الكاتب والى مقدار خسارتنا برحيله المبكر.

في حياة الحمد ونشاطه

شكر حاجم الصالحي

وانت تقرأ اعداداً من مجلة التراث الشعبي العراقية التي اختصت بنشر الدراسات والبحوث الفولكلورية يظهر لك اسمه على صفحاتها كاتبا مبدعا وباحثا ومعقبا وناقدا لمظاهر الحياة الشعبية وفنونها المتعددة. وذلك في اغلب اعداد هذه المجلة الرائدة، خاصة في سبعينيات القرن العشرين ، وقد امتازت كتابات الراحل جبريل حمد (١٩٤٧ . ١٩٧٧) بالموضوعية والدقة والشمول ، فقد بدأ الكتابة عام ١٩٦٩ ، ونشر اول كتاباته في جريدة الراصد الاسبوعية وفي مجلات الف باء والاديب البيروتية والتراث الشعبي التي لازمها ناشراً ومعقباً حتى وفاته في ٢٠ نيسان عام ١٩٧٧,

لقد عرفت الباحث الراحل من خلال مجلتنا العريقة يوم كنت احد المواظبين على الكتابة فيها، وتوطدت صلاتنا في قرية (السادة) ضمن قرى العذار جنوبي الحلة، حيث كان لنا معه شرف الانتماء لها ولادة وتاريخا ونسبا.

درس الراحل في مدرسة السادة الابتدائية و اكمل المتوسطة في متوسطة الجمهورية، والثانوية في اعدادية الحلة، وفي عام ١٩٦٧ ، التحق بمعهد المعلمين عين بعدها معلماً في قرية حلوة وسط ضمن قضاء الشرقاط في محافظة نينوى ، ومكث فيها ثلاث سنوات، ثم نقل الى تربية بابل، اذ كلف بادارة مدرسة (احد) الابتدائية ومن بعدها انتقل الى مدرسة عرب بيرمانة ، الى ان استقر في مدرسة الكويخات الابتدائية ومنها انتقل الى عالم الابدية.

لقد كان الباحث الراحل ومنذ بواكير نشأته الاولى، سريع البديهة حاد الذكاء متوقد الطرفة، والده المرحوم السيد حمد الهيلة يصطحبه الى مجالسه الخاصة فقد كان شاعراً شعبياً بالفطرة، ومن رجالات القرية الذين يتمتعون بحضور اجتماعي كبير، ويرجع نسب الراحل جبريل الى زيد الشهيد بن علي بن الحسين بن علي (عليهم السلام).

ومما لاشك فيه ان ما نقدمه ليس كل ما كتب المرحوم جبريل حمد لكننا لم نحصل على جميع ما نشره برغم جهودنا المضنية في ذلك، اذ نحن على يقين تام انه نشر عرضاً عن كتاب الاغنية الشعبية للدكتور احمد مرسي، ودراسة مطولة عن المباني الطينية كما نشر دراستين عن السيد حيدر الحلي، وعبد الرزاق الهلالي ونشر ايضا ملاحظات نقدية عن مسرحية النخلة والجيران وديوان الملا عبود الكرخي.

وبعد رحيله المفاجئ نعته مجلتنا الرائدة (التراث الشعبي) وعدد من الصحف والمجلات العراقية والعربية ومن بينها صحيفة الثورة البغدادية ومجلة الاديب البيروتية.

واخيرا رحم الله الباحث الراحل جبريل حمد ووفقنا لخدمة ثقافتنا الوطنية والقومية.

الحراسة الليلية في القرى

جبريل حمد الهيلة

منذ ان استوطن الانسان ارض الرافدين حاول تنظيم الحياة والمحافظة على استقرارها ، ولما كانت حماية المناطق السكنية من الامور المهمة لذا لجأ العراقي القديم الى حراستها ووضع القوانين لضبطها ، ولم تغفل الشرائع القديمة المدونة في وادي الرافدين ذكر الحراسة الليلية ومهامها ، فقد جاء في المادة (٦١) من قانون ايشنونا:

(اذا حارس مهمته حراسة، دار والدار هي سبب معيشة رجل ما واهل الحراسة فكسر باب الدار فالحارس سوف يقتل..) ويجب ان يقبر (امام كسرة الدار) .

ومن يمعن النظر في هذه المادة يلاحظ انها مجحفة بحق الحارس المجد الذي ربما غفلت عيناه في ليلة من الليالي الطويلة وكسر باب الدار الذي بحمايته فيكون نصيبه الاعدام وهذا يدل على محاولة اتقان العراقيين لاعمالهم منذ فجر التاريخ، وكذلك محاولاتهم لعدم نشر الفوضى في بلادهم.

اما اشرس مراحل التاريخ وامرها بالنسبة لبلادنا فهي المرحلة المصطلح عليها تاريخياً ب (الفترة المظلمة) فقد عاشت فيها البلاد في ليل دامس لاترى فيه الانامل ولايسمع فيها صوت الثقافة ولايشع اليه نور العلم الذي ملأ اوروبا انذاك، ناهيك عن الفقر الذي ضرب بطول البلاد وعرضها فتهافت السراق وكثر اللصوص وغدا شرهم لايؤمن حتى داخل المدن و الحواضر.. فكيف لايحافظ السكان على بيوتهم وممتلكاتهم وخاصة ليلاً؟ لذا نضجت الحراسة الليلية في القرى والارياف وكانت تسمى شعبياً (الوحاشة) والحارس الليلي يدعى (الوحاش) والجمع (الوحاحيش) ، اما حراسة البساتين فتسمى النظارة) وحارس البستان (ناطور) والجميع (نواطير).

نامت نواطير مصر عن ثعالبها
فقد بشمن وما تفنى العناقيد وتهمنا

في مقالتنا هذه الحراسة الليلية ولها عدة انظمة، فالنظام الاول يفرض على كل اسرة في القرية ان تحرس ليلة كاملة ، هكذا بالترتيب حتى تتم الدورة على جميع الاسر وتعاد عند انتهائها، وتلتزم العائلة الحارسة بخسارة اية سرقة تحدث في ليلة حراستها، والنظام الآخر يسمى (وحاشة رمح) ويؤدى من قبل شخص له صولة وبطش يلتزم بحراسة قرية ما وربما لايقوم بحراستها وانما تبقى القرية بحمايته لايستطيع احد السراق سرقتها لعمله انها بحماية فلان، وهذا الحارس يجبي من كل اسرة مبلغا زهيدا من المال يتراوح بين (٥٠) فلساً شهرياً او مقابلب ذلك يأخذ شعيراً او حنطة او تموراً تبعاً لمنتوجات المنطقة الزراعية.

اما النظام الثالث فيعتبر اهم من النظامين السالفين من حيث التزامه والوثوق به وخلاصته بان يقوم نفر من اهل القرية او من غيرها بحراسة اية قرية كانت وفي الغالب يكون عدد النفر (٢ . ٦) يتزعمهم رجل من بينهم تطلق عليه كلمة (الملتزم) وهذا لابد ان يكون رجلاً ملتزماً كفوءاً لمهمته وتتوفر فيه شروط أهمها الشجاعة والخبرة، ويتعهد لاهل القرية بخسارة السرقة، والورقة المحررة تسمى (السند) تكتب بنسختين يوقع في كل منهما مختار القرية والملتزم وكذلك كفيلة الذي يكون عادة من اصحاب القدرة المادية ويتمتع بثقة المنطقة ، وفي النادر ان يكون من الموقعين رئيس الوحدة الادارية التابعة لها القرية، وتذيل كل من النسختين بشهادة جماعة اخرين، ويلصق في كل منهما طابع من فئة (١٠٠) فلس وتودع احدى هاتين النسختين عند شخص موثوق به من الجميع ، اما النسخة الثانية فتبقى عند الحارس (الملتزم) واحياناً يقوم بحراسة القرية شخص واحد يتعهد بوفاء نصوص ورقة التعهد ويؤدي بمفردة الخفارة.

وقد بذلنا الجهد على حصول بعض نماذج اوراق التعهد فلم يحالفنا كامل الحظ، وانما حصلنا على بعضها وقد أكلت وافر محتوياتها (الارضة) لكننا استطعنا التعرف على قسم كبير من نصوصها بعد عناء حل رموزها لضياع بعض الحروف، ومن بين مواد تلك الاوراق: ان على الحارس التعهد بخسارة السرقة التي تحدث بعد الساعة الواحدة ليلاً، يخسرها الموماً اليه من خالص ماله بعد مضي (٣٠) يوماً من تاريخ حدوثها: اما اذا طلب السراق (البخت) بان يرجعوا المسروق لقاء مبلغ من المال يسمى (الحلاوة) عند ذلك يقسم المبلغ الى نصفين يدفع الحارس نصفه والنصف الآخر يدفعه اهل المسروق، ولربما يقتل الحارس احد اللصوص في اثناء الخفارة فتدفع القرية المحروسة دية اللص وذلك بجمع المبلغ من أسرها ، ولايتعهد الحارس بخسارة النقود بحجة ان احد افراد العائلة قد سرقها نهاراً.

و استمرارية ورقة التعهد سنة حولية وبعد الحلو يبطل مفعولها لكنها تجدد ما اذا رغب الحراس في عملهم واستمروا به ويتم ذلك بموافقة اهل القرية. وفي الليلة التي تكتب فيها الورقة المذكورة يرسل الحراس احد ابناء القرية لينادي بين دورها وعرصاتها قائلاً: (اسمعوا يا اهل الولاية اليوم تنطر الوحاحيش). ومعناه يا سكان القرية اليوم تحرسكم الحراس فكونوا على اطمئنان وماقصدهم في هذا الا تنبيه القرية حتى يتملكها الامان.

هنا يأتي دور الحارس (الملتزم) ليقسم الخفارة ، ومناطقها على بقية جماعة الحراس بالتساوي وجرت العادة ان يقوم بها نصفهم في الشطر الاول من الليل ونصفهم الاخر في الشطر الثاني منه، والملتزم يشرف على الجميع وله الحق في عزل من يريد عزله ومن حقه ايضاً تبديل خفارة أي حارس وكذلك منطقة خفارته، وتستعمل في اثناء الخفارة صفارة لتجمع الحراس عند الحاجة الملحة. ومن الطريف حقاً اعتماد بعضهم على نباح الكلاب، فهم يعرفون تماماً ان الكلب العائد لفلان لايطلق نباحه الا على رجل لذلك يسارعون الى المنطقة التي سمعوا فيها النباح،وكذلك اعتمادهم على اصوات الطيور او طيرانها من اعشاشها ليلاً، فمثلاً عندهم ان صوت (الططوة) يدل على رجل تراه هي فقط، وطيران الطير من عشه او من وكره فهو قد رأى رجلاً لامحالة فيراقبون المنطقة بكل دقة وحذر ويمشطونها تمشيطاً تاماً حتى يحاولوا ان يعثروا على اللصوص ، ويعتبر عملهم هذا مشقة ما بعدها مشقة لذلك قيل في الحكم الشعبية (الوحاش دمه بحر حارة ايده) الوحاش: الحارس الليلي ، براحة ايده: أي ان موته قريب حيث ايشيبون من وكت الجلب والوحاش). أي ان الشيب يسرع الى الحارس والكلب مبكراً لسهرهما الدائم.

ويعتبر وقت الفجر هو وقت هجعة الحراس:

اقبلت وقت رقدة الحراس
بالرحيقين ريقها والكاس.

لذا على الدوام تحدث فيها سرقة القرية وعندها يقال للحراس (نطارة العكروك) ومعناه يحرسون طوال الليل حتى اذا داهمهم الفجر رقدوا فسرقت القرية ويحكى ان الضفدع (العكروك) يحرس نفسه من الافعى لئلا تمتص دمه من اول الليل حتى الفجر فينام فتمتصه ولهذا يضرب به المثل.

أما اسلحة حراس القرى ففي الغالب تكون اسلحتهم الخاصة المتكونة من السلاح الناري والجارح والراض، وبعضهم يتسلم من الوحدة الادارية التابعة لها القرية اسلحة حكومية، ولهم الحق في ان يمنعوا أي شخص مشبوه من الخروج والدخول الى القرية ليلاً خوفاً من ان يتآمر على سلامتها خاصة وقت مشاجراتها مع بعض القرى المتاخمة، ومن حقهم ايضاً ان يجبروا صاحب أي دار خربة غير مسكونة ان يسيجها كي لا تكون مكمناً للصوص، وقد جاء في المادة الحادية عشرة من شريعة (لبت عشتار) : "اذا كان لرجل ارض مهجورة مجاورة لدار فربما يدخل احد الى داري (من اجل السرقة) فقو دارك (أي سور أرضك المهجورة) ويتم الاتفاق بينهما (على ذلك) فان صاحب الارض المهملة سيعوض صاحب الدار عن اية خسارة تحدث له.

فيلاحظ ان هذه المادة تقريباً ورثت عن العراقيين القدماء وكانت في الماضي القريب تطبق بعض فقراتها عند حراسة قرانا.

يقدم الحراس هذه الخدمة لقاء مبالغ من المال تدفعها بيوت القرية وتجبى في نهاية كل شهر ، مقدارها (٥٠ . ١٥٠) فلساً حصة البيت الواحد ، أو مايعادلها من حنطة او شعير او تمر. كما بينا في النظام الثاني. وتكون حصة زعيم الحرس (الملتزم) كحصة احد الاعضاء الاخرين ومن عاداتهم عدم اخذ اجور الحراسة من الحراس القدامى لشعورهم بانهم اخوان لهم في المهنة وتعفى النساء الارامل، ويدخل ضنمن حراسة القرية مقاهيها وحوانيتها وجماعة البدو الذين يبيعون ويشترون البضاعة ويضطرون للمبيت، والسفن الراسية في النهر مقابل القرية، ولم يعف المختار من الاجور ولا الجماعة صاحبة الكلمة النافذة ، بل يهتم هؤلاء بجمع المبالغ المتفق عليها من بيوت القرية ودفعها الى الملتزم بتاريخ استحقاقها تشجيعاً منهم للحرس الذين يرفضون عملهم اذا لم تسدد الاجور.

ويضطر الحارس احياناً الى سرقة البيت الذي يابى صاحبه دفع الاجور، ولايرجع له مسروقه ما لم يدفع المبالغ المتراكمة عليه وعند ذلك يصح القول فيه (حاميها حراميها)، وفي نظر اهل القرية بان الحارس هو الذي يحامي ويصون ذمار القرية ليلاً، وما ان يسمعوا صوت عيارات نارية حتى يسارعوا نحوها للدفاع عنه وسماعدته في مهمته ومساعدته في مهمته الشاقة والتي يتعرض فيها مرات عديدة للخطر الفادح والموت المؤكد لولا شهامة شباب وكهول القرية الذين يحاولون انقاذه بأقصى جهد.

اما الصوقص فيبذلون اقصى طاقتهم وحيلهم للدخول الى القرية المرحوسة، وفي النادر يضطرون لإقناع احد رجال القرية الذي يكون عادة يكره الحراس فيتعاون مع اللصوص ويساعدهم ويسمى هذا الشخص عند الناس (لوتي)، والسراق في بعض بقاع العالم يستعينون . قديماً ببعض ضروب السحرالتشاكلي كي يجلبوا النعاس لأهل المنزل الذي يريدون سرقته، ففي جاوا مثلاً (ينثر اللصوص تراب احد القبور حول البيت الذي ينوون السطو عليه على اعتبار ان ذلك كفيل بان يجعل النوم يدب الى اجفان السكان). كل هذه الاعمال الاجرامية التي يقوم بها اللصوص وفي كل بقاع الدنيا فلابد للقانون ان يكون صارماً ضدهم كي ينشر الطمأنينة بين سكان الارض وجاء في اضخم شريعة قديمة في العالم الا وهي شريعة حمورابي بعض المواد التي توصي بقتل اللص، ففي المادة (٢١) من هذه الشريعة (اذا احدث رجل ثغرة في دار ما (من اجل السرقة) فعليهم ان يعدموه امام تلك الثغرة ويقيموا عليه الجدار(أي يدفنوه داخل الجدار).

وكذلك في المادة (٢٢) مايلي (اذا قام رجل بالسرقة وقبض عليه في اثنائها، فأنه يعدم) ولايخفى على القارئ وصية القرآن الكريم بقطع يد السارق والسارقة ، مع كل المواد الصادرة بحقهم فأنهم يقومون بأعمالهم الشريرة فيقف الحارس حذراً ومشمراً عن ساعديه ذائداً عن القرية التي بعهدته والتي في النادر تحدث فيها السرقة لسهره ويقظته، ولكنه يضطر احياناً الى ممارسة الدجل وذلك بتوجيه فوهة بندقيته نحو القرية وفي الهواء يطلق النار بحجة ان لصوصاً دهموه يريد بهذا يقظة اهل القرية وسهرهم وحتى تتأكد له شفقة اهل القرية عليه ايضاً، وعند تركهم في حالة يقظة فلعله يلتمس النوم لأنه اصبح في مأمن من السراق لسهر الاهالي.

إضافة الى محافظة الحراس على ممتلكات القرية فأنهم يؤدون خدمات للدولة مثل القبض على (الكرفتيه) واللصوص وكذلك الهاربين من الخدمة العسكرية اذا اجبر من قبل رئيس الوحدة الادارية.

ولما كان عمل الحارس ضرباً من ضروب الشجاعة. كما عرفنا. فكيف لا يدخل حبه الى قلوب الريفيات اللواتي يعبرن عن شعورهن بأغنيتهن التي تركت حقلاً رائعاً في مأثورنا الشعبي؟!

ولنمعن النظر في هذه الاغنية الشعبية (الدارمي) التي تتمنى المتيمة فيها ان تحمل سلاحاً راضاً (المكوار) لتلزم الخفارة بدلاً من حبيبها الذي قبضة خنجره من قرن الغزال:

ياخنجر الوحاش
كرن الغزاله
وارد الكف المكوار
وانطر بداله

اما اغلب المحبين الذين يودون لقاء حبيباتهم تحت جنح الليل لكن عيون الحراس تبصرهم ، فهم يكرهون دور الحارس الذي يمنعهم من اللقاء فوق عرش الحب ومناغاة الهوى فيضطر الى مرافقته في مهمته كي يتمكن من لقاء حبيبته:

وارد ارفج الوحاش
وانطر عكدهم
بلكت توالي الليل
تطلع لي بتهم

ولما كان الحارس يتحمل خسارة السرقة كما نصت ورقة التعهد السالفة الذكر فقد قالت احداهن عندما سرق منزلهم.

صبحنا يمه اليوم
وامعزلينه
غصبن على الوحاش
يخسرها لينه

اذا انتهت مدة التعهد ولم يرغب الحراس في الاستمرار بعملهم يجب عليهم ان يبعثوا منادياً في القرية معلناً انتهاء مدة الحراسة قائلاً: (يهل الولاية حاضركم ينبه غايبكم انظروا اليوم بطلوا الوحاحيش) أي يا اهل القرية فلينبه الحاضر منكم الغالب بان الحراس تركوا عملهم فاحرسوا بيوتكم، وهنا تضطر كل عائلة الى ان تحرس بيتها.